مرحلة غير سهلة في السودان

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليست محاولة اغتيال رئيس الوزراء السوداني عبدالله حمدوك في الخرطوم قبل بضعة أيّام حدثا عابرا. تدلّ محاولة الاغتيال التي استهدفت الوجه المدني الأبرز في السودان، في مرحلة ما بعد عمر حسن البشير، على وجود رغبة في القضاء على أيّ محاولة جدّية للانتقال بالسودان إلى مرحلة جديدة مختلفة من جهة وإلى أن النظام السابق الذي استمرّ ثلاثين عاما مازال يمتلك أنيابا من جهة أخرى. بكلام أوضح، ليس سهلا التخلّص من نظام البشير بكل ما زرعه في ثلاثين عاما بمجرّد وضع الرجل في السجن. ثمّة حاجة إلى الذهاب إلى ما يتجاوز ذلك بعيدا عن أيّ مغامرات جديدة يمكن أن تغري طامحين إلى السلطة على غرار ما حصل في 1958 لدى قيام أول حكم عسكري، بموافقة المدنيين، إثر انقلاب نفّذه الفريق إبراهيم عبّود.

محاولة اغتيال حمدوك تكشف أن المرحلة الانتقالية في السودان لن تكون سهلة وأن الإخوان المسلمين الذين تسللوا إلى كلّ المؤسسات سيقاومون أيّ تغيير كبير

أخرج السودانيون العاديون إبراهيم عبّود من قصر الرئاسة في العام 1964. فشل المدنيون مجددا في إقامة نظام قابل للحياة وذلك في ظلّ تجاذبات حزبية وطموحات فردية من النوع الذي ميّز التاريخ الحديث للسودان منذ استقلّ في العام 1956.

مهّد الفشل في إقامة نظام مدني قابل للحياة لمجيء عهد جعفر النميري مع مجموعة من الضباط في 1969. ما لبث السودانيون أن تخلصوا من النميري في 1985 بعدما حاول القيام بكلّ الحركات البهلوانية لإنقاذ نظامه، بما في ذلك الاستعانة بالإخوان المسلمين وبحسن الترابي بالذات للبقاء في السلطة.

كان ذلك في السنوات الأخيرة من عهد النميري الذي خلفه، بعد مرحلة المشير سوار الذهب، نظام مدني لم يستمرّ غير ثلاث سنوات استطاع حسن الترابي قلبه مستعينا في منتصف 1989 بضباط صغار معظمهم ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين.

كان الترابي يعتقد أنّ في استطاعته استخدام هؤلاء الضباط، على رأسهم عمر حسن البشير بغية تحقيق أهداف تتجاوز حدود السودان. كان يعتقد أيضا أنّ لديه من الخبرة والدهاء ما يمكّنه من أن يكون لاعبا في كلّ منطقة القرن الأفريقي وحتّى في مصر التي ما لبثت أن اكتشفت طبيعة النظام السوداني الجديد بعد محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا التي جاء إليها من أجل حضور القمّة الأفريقية في حزيران – يونيو من العام 1995.

لم يبق حسن الترابي طويلا في موقع العرّاب للنظام السوداني، الذي ولد من رحم انقلاب عسكري. فقد بدأت تتكوّن سريعا لدى عمر حسن البشير طموحات خاصة به. ما لبث البشير أن باشر التضييق على الترابي وصولا إلى سجنه. وكاد ينفذ به حكما بالإعدام لولا تدخّل علي عبدالله صالح، الرئيس اليمني وقتذاك، الذي استطاع حمل الدكتاتور السوداني على إعادة النظر في الذهاب إلى هذا الحدّ في المواجهة مع الزعيم الأبرز للإسلام السياسي في السودان.

لم يؤد تحييد الترابي إلى تحييد الإخوان المسلمين الذين تابعوا هجمتهم على مؤسسات الدولة السودانية عن طريق التغلغل فيها، بغض النظر عمّا إذا كانت هذه المؤسسات مدنية أو عسكرية أو أمنية. صاروا في كلّ مكان، بما في ذلك الإعلام الذي كان جزء منه يموّل عبر النظام، عبر الأجهزة الأمنية التابعة له مباشرة، أو عبر رئاسة الجمهورية، أو حزب المؤتمر الوطني الذي كان بمثابة حزب السلطة.

استُهدف عبدالله حمدوك لأنه يعرف تماما ما الذي يتطلّبه قيام نظام جديد في السودان. لديه خبرة واسعة في كيفية عمل الدول الحديثة وكيفية التعاطي مع المنظمات الدولية الفاعلة ومع الإدارة الأميركية بالذات. من الواضح أنّ همّه إيجاد قطيعة بين السودان الحديث والعهد الذي كان فيه عمر حسن البشير مستعدا لكل شيء من أجل البقاء في السلطة. كان الإخوان المسلمون الطرف الأبرز في استغلال نقطة الضعف هذه عند البشير. كان كلّ همّهم محصورا في أن يكونوا مستقبل السودان وأن تكون لديهم أذرعهم، بما في ذلك الميليشيات المسلحة القادرة على الإمساك المباشر بالسلطة يوم يجد البشير نفسه مضطرا إلى الاعتزال أو الذهاب إلى القبر.

من الطبيعي تركيز الثورة المضادة، التي وراءها بقايا من النظام السابق وجهات خارجية، على عبدالله حمدوك. إنّه قبل أي شيء آخر، هدف سهل... وليس كما حال رئيس المجلس العسكري عبدالفتاح البرهان أو الجنرال محمّد حمدان دقلو المعروف باسم "حميدتي" اللذين يتحركان في ظلّ إجراءات أمنية شديدة.

فوق ذلك كلّه، إنّه يتمتع بمواصفات معيّنة في غاية الأهمّية. من أبرز هذه المواصفات قدرته على التحدث إلى الأميركيين والأوروبيين، خصوصا ألمانيا التي تعمل بشكل جدّي على تمكين السودان من إعادة تأهيل نفسه. وهذا لا يقتصر على المؤسسات المدنية للدولة، بل يشمل الأجهزة الأمنية التي يفترض بها أن تكون في خدمة السودانيين وليس في خدمة الإخوان المسلمين وشبكتهم المعروف إلى السلطة.

ما يمكن استخلاصه من محاولة اغتيال حمدوك أن المرحلة الانتقالية في السودان لن تكون سهلة وأن الإخوان المسلمين الذين تسللوا إلى كلّ المؤسسات سيقاومون أيّ تغيير كبير قد يجعل من السودان دولة حديثة تخرج نهائيا من لائحة الدول المارقة الداعمة للإرهاب.

بغض النظر عن التجاذبات الداخلية التي يشهدها السودان، تبدو محاولة اغتيال عبدالله حمدوك حدثا مهمّا بحد ذاته. فبعد هذه المحاولة، لم يعد في الإمكان الاستخفاف بقدرة النظام السابق على المقاومة. هناك حاجة إلى ما هو أبعد من احتجاز البشير ومحاكمته أو تسليمه إلى المحكمة الجنائية الدولية. ثمّة حاجة إلى عملية تطهير في العمق على كلّ المستويات، خصوصا في أوساط العسكر والأجهزة الأمنية وحتّى الوزارات المختلفة.

يظلّ السودان بلدا في غاية الأهمّية لأسباب مختلفة من بينها مساحته الشاسعة ومرور النيل، الذي هو شريان الحياة بالنسبة إلى مصر، في أراضيه. كذلك هو المكان الذي يلتقي فيه النيلان. السودان أيضا مطلّ على البحر الأحمر. لا حاجة بالطبع، إلى الإشارة إلى ما يمكن أن يكون عليه السودان في حال استغلال ثرواته الطبيعية، لكنّ الأكيد أن قيام دولة حديثة فيه تنتمي إلى العالم المتحضّر لن يكون سهلا. سيتمسّك الإخوان المسلمون به إلى أبعد حدود. سيقاومون بشراسة أيّ تطور نحو الدولة السودانية الحديثة المتصالحة مع شعبها ومع العالم. ستحظى مقاومة الإخوان المسلمين لتوجه السودان نحو أن يكون دولة مدنية بدعم خارجي. لا شكّ أن تركيا تتذكّر أنّها حاولت أن يكون لها موطئ قدم في غير مكان في السودان، بما في ذلك على البحر الأحمر... وهذا ما سعت إليه إيران أيضا!

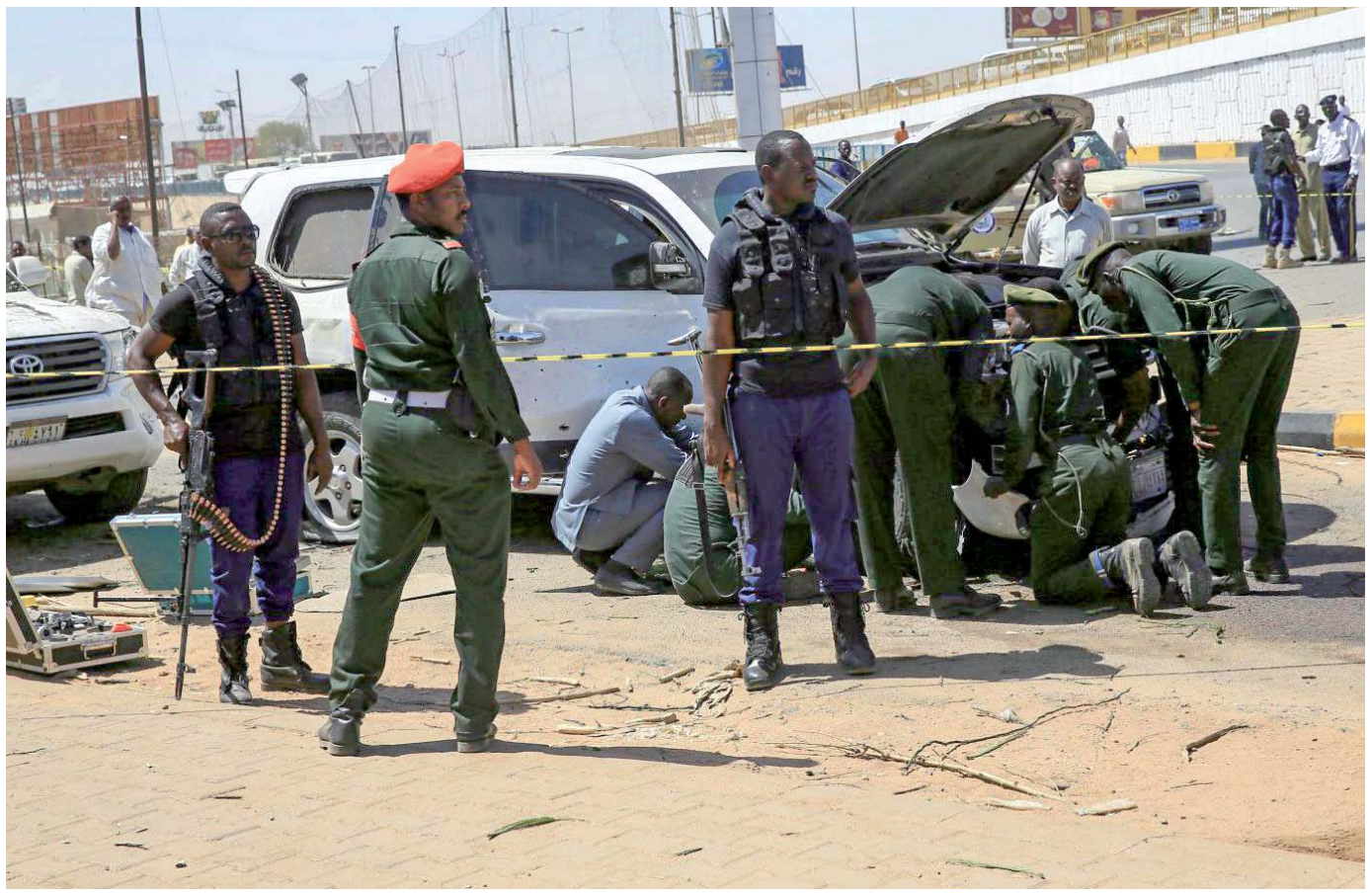

السودان يحتاج إلى عملية تطهير في العمق

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

أنا ومبعوث الأمم المتحدة السابق إلى ليبيا

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

يتشابك العام مع الشخصي أحيانا، ويمكن أن ينتج في النهاية قيمة لها دلالات سياسية قوية في فهم بعض الأزمات وآليات التعامل معها. ومهما بلغت هامشية التأثير بالنسبة إلى جوهر الأزمة فهو يحمل خاصية قد تكون مفيدة عند تحليل المضمون. ويتزايد المعنى إذا كان الشخص المسؤول عنها في حجم الدور الذي لعبه غسان سلامة مبعوث الأمم المتحدة السابق إلى ليبيا.

استقال أو أُقيل الرجل لا يهم، ففي الحالتين تصوّر أنه أدى مهمته على أكمل وجه، زاعما أنه وضع ليبيا على أعتاب تسوية سياسية واعدة بعد تدشين مؤتمر برلين، بينما يعتقد كثيرون أن الأزمة ازدادت تشابكا وفقدت الكثير من الفرص المواتية للحل بسبب تقديراته الخاطئة وتصوراته البعيدة عن الواقع، لأنها بدت منحازة إلى رؤية قوى ميليشياوية وجودها على الأرض غير شرعي أصلا، لكنه أسهم في منحها نفوذا سياسيا.

تضخمت هذه القوى معنويا وماديا جرّاء التساهل الذي أبداه المبعوث الأممي معها، حتى تحولت إلى رقم رئيسي في معادلة السلطة في طرابلس، وعندما تم تنبيه سلامة إلى خطورة هذا التضخم، اعتبر كل من يلفت النظر أو يوجه انتقادات لهذا المسلك يحمل أجندة معادية أو ينفذ تعليمات جهات بعينها تعرف أن خطواته لن تفضي إلى الحل المنشود في ليبيا.

كتبت في جريدة "العرب"، وغيري من الزملاء، العديد من المقالات والتحليلات حول الأزمة الليبية، ووجهت ملاحظات لبعض تصرفات غسان سلامة دون أن أعلم مدى متابعته لما أكتبه، فلم تربطني به علاقة من أيّ نوع على مدار مسيرته العلمية والسياسية، ولا أعرف مدى حرصه على قراءة ما يُكتب عنه، حتى علمت من أحد المسؤولين في مصر أن الرجل منزعج من الانتقادات التي أبديها على مهمته، خاصة بشأن موقفه من تيار الإسلام السياسي، للدرجة التي جعلته يحتفظ بكل المقالات التي كتبتها هنا في "العرب" أو بجريدة الأهرام المصرية.

لم أشأ الكتابة في أثناء جلوسه على مقعده، منذ علمت بالواقعة قبل حوالي ثلاثة أشهر، منعا للإحراج الذي قد يسببه الحديث للبعض في الأعراف الدبلوماسية، أما وأن سلامة ذهب إلى حال سبيله وترك منصبه الرفيع فقد خفّت مساحة الحرج، وأصبح من الممكن تناول الحدث ومعانيه السياسية، فمن حق القارئ المعرفة.

قادتني الظروف لمعرفة معلومات كثيرة عن الرجل ومهمته في ليبيا من خلال التواصل مع كثير من المصادر الليبية والمصرية، ونحيت جانبا كل ما هو شخصي أو يتعلق بعلاقاته السابقة واللاحقة الإنسانية والسياسية، وتناولت فقط كل ما يتعلق بطبيعة وظيفته كواحد من الشخصيات العامة التي يحق لكل كاتب التطرق لأدوارها سلبا أو إيجابا، ولم أخطّ حرفا واحدا له صلة بحساباته وعلاقاته الشخصية، وهي كثيرة وممتدة خاصة مع قطر وأذرعها.

مع ذلك بدا الرجل مستفزا مما كتبته عنه بهدوء، وتحدث مع بعض الأشخاص في محاولة للحصول على معلومات منهم عني، وهو ما عرفته بالصدفة من صديق يعرف سلامة جيدا، لأن الشخصيات التي تحدث معها لا تربطني بها علاقة مباشرة، ربما تعرفني بحكم عملي الصحافي، والأدهى أنه ألمح إلى أن كاتب المقالات شخصية "مصطنعة" غير حقيقية، أو بمعنى آخر اسم مستعار لشخص يعمل في جهة أمنية سرية.

توقفت عند هذه الملاحظة كثيرا لأنها كاشفة لمعدن الرجل، إذ من السهل على المبعوث الأممي أو أحد معاونيه بضغطة زر واحدة على غوغل التعرف عليّ، فلي كتابات كثيرة عن ليبيا وغيرها من القضايا العربية، والنتائج التي ستظهر له بسرعة وتؤكد له عملي في مجالي الصحافة والبحث منذ حوالي عقدين ونصف العقد، والمقالات التي كتبتها بـ"العرب" مبوّبة ومنظمة بطريقة تمكنه من الاطلاع عليها في يُسر وبتراتبية تاريخية مريحة على مدار سبع سنوات.

تكشف هذه المسألة إلى أيّ درجة كان غسان سلامة مهتما بما يُسطّر عنه من قريب أو بعيد، ليس من باب الاستفادة والحرص على تصويب الأخطاء، لكن على سبيل معرفة كيف يفكر من يتصوّر أنهم خصوم له، في حين لو اهتم بما كتب عن دوره في ليبيا من قبل كثيرين لأصبح لبعثة الدعم شأن مختلف، وما وصلت إلى هذه الحلقة الضيقة من الانسداد السياسي والأمني، وما اضطر هو إلى الاستقالة بذريعة المرض والإجهاد. يظل سلامة صفحة في سجل الأزمة الطويلة، وقد يؤرخ بأنه كان الأشد خطورة عليها، مقارنة بمن سبقوه من مبعوثين دوليين في هذه المهمة، لأن توجّهاته فتحت الباب على مصراعيه للتدخل التركي وانتشار الإرهابيين والمرتزقة وتصاعد دور تيار الإسلام السياسي في ليبيا.

كل الطرق المحلية والإقليمية والدولية تقود إلى إغلاق صفحة غسان سلامة بكل ما حملته من رؤى غائمة تسببت في زيادة دور الميليشيات والمرتزقة

أكّد تعامله المبكر بطريقة "شوفينية" في إدارة الأزمة أنه لا يعبأ برأي المخالفين له، ولا يطرب لما قالوه ولو كان في صميم مساعدته، فقد تملكت رأسه فكرة أنه يعرف أكثر من اللازم، وأكثر من غيره، وعندما يُظهر استجابة مؤقتة أو رمزية لأسباب دبلوماسية سرعان ما يقوم بسحبها، والعودة إلى نزقه السياسي، وإيمانه بالمحاصصة والطائفية دون اعتداد بطبيعة البيئة التي يطبق فيها نموذجه، وفحص النتائج التي أحرزها في مهام سابقة.

سمعت عنه الكثير من القصص التي تبين جوهره السياسي، إحداها أن الرجل أصبح في العرف الدبلوماسي غير موثوق فيه، فلديه قدرة على التسلل بنعومة إلى قلوب المتحدثين معه، ويظهر غير ما يبطن، يبدو قريبا منهم ومتفهّما لكل ما يقولونه أمامه ومتعاونا لأبعد مدى، وعندما ينتهي اللقاء ويعود إلى مقره في طرابلس تحت سمع العصابات المسلحة وبصرها وسيطرتها يتصرف بطريقة مغايرة، فقد كان مستمعا جيدا وليّنا وطيّعا ومحاورا هادئا خارجها، وعند عودته إلى هذه الحاضنة يقترب من رؤية التيار العقائدي وينطق تقريبا بما ينطق به قادته.

تمسك بموقفه الإيجابي من الإسلام السياسي، راوغ وناور وقفز على حواجز عديدة طالبته باتخاذ مسافة واحدة بينه وبين غيره من القوى الليبية، صمم على أن تكون عناصر هذا التيار بكل ما أظهره الإرهابيون من مخاطر في طليعة التوازنات في ليبيا، بل والمتحكم في كثير من تفاصيلها، والتف على المبادرات التي أرادت تنحية الإخوان وحلفائهم أو نادت بأن يكون دورهم متسقا مع وزنهم النسبي على الأرض وليس متعاظما كما خطّط المبعوث الأممي.

ذهب غسان سلامة غير مأسوف عليه، وهو على يقين زائف أنه حقق أكثر من المطلوب، بينما يراه الليبيون ضلعا في النكبة الجديدة التي تعيشها بلادهم، لأنه تركها في منتصف الطريق، لا هو أكمل خطته على المسارات الثلاثة، العسكرية والاقتصادية والسياسية، والتي دشنها مؤتمر برلين، وكان من الممكن تصويبها تدريجيا، ولا هو ترك القوى الوطنية تتصرف بالطريقة التي تتناسب مجتمعيا مع حقيقة ما يجري في ليبيا.

غادر منصبه، ولا أحد يعرف من سيأتي بعده، وهل سيكون الخليفة قادرا على استكمال خطته التي تواجه جملة من العثرات منذ ولادتها في ألمانيا وهي التي لم تنتج شيئا ملموسا بعد نحو شهرين من العمل بها، فإذا كان وجوده على رأس بعثة الدعم لم يؤد إلى نتيجة، فهل يمكن أن يفضي غيابه إلى إحراز ما عجز هو نفسه عن تحقيقه؟

كل الطرق المحلية والإقليمية والدولية تقود إلى إغلاق صفحة غسان سلامة بكل ما حملته من رؤى غائمة تسببت في زيادة دور الميليشيات والمرتزقة، حيث باتت السنوات الثلاث التي جلس فيها الرجل على رأس بعثة الدعم الأممي في ليبيا فاصلة وتؤرخ لما قبلها وما بعدها.